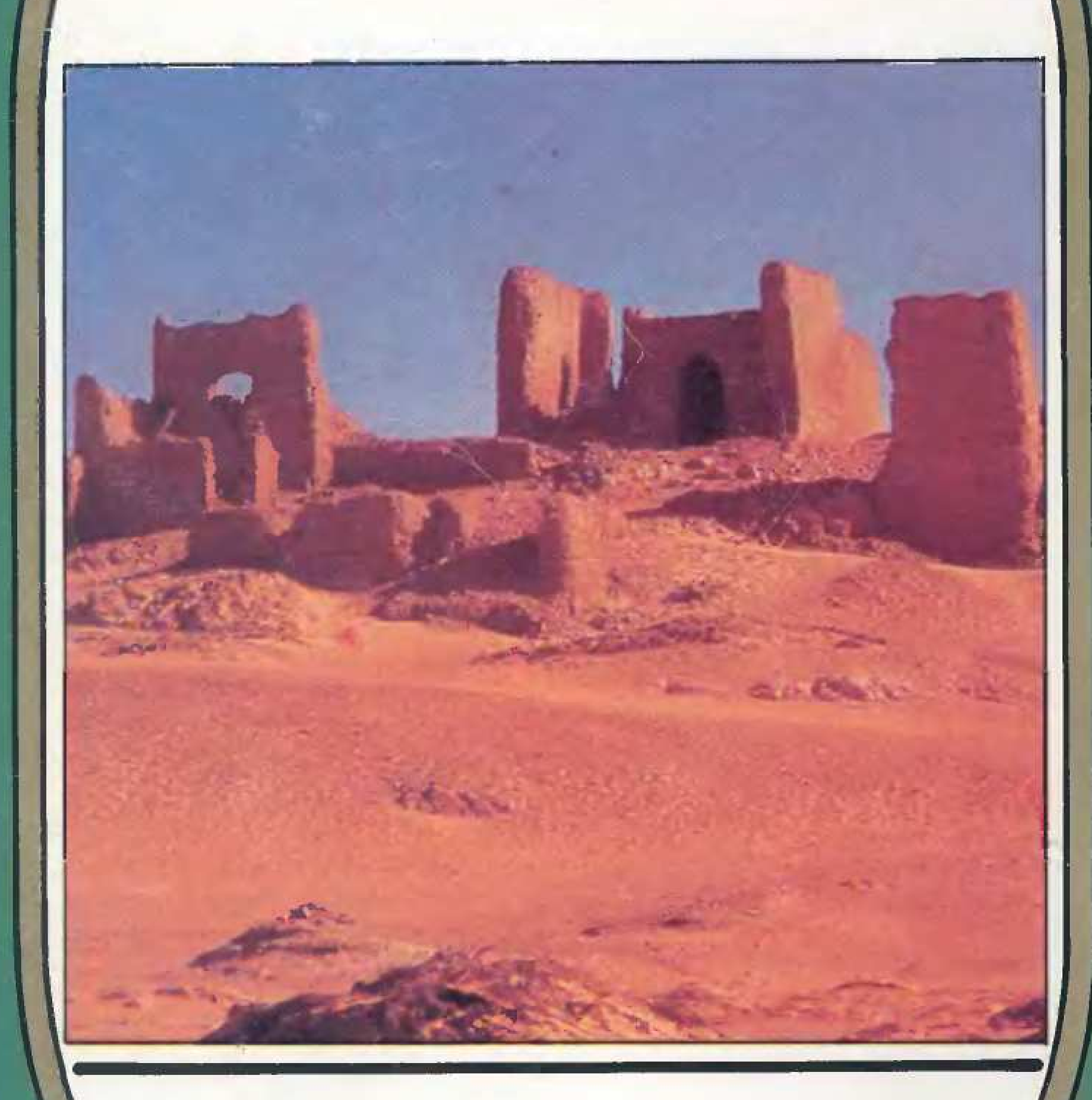
موسوعة تاريخ مصر

مصر الرومانية



إعداد: هشام الجبالي



مرحبا بأصدقائى فى كل بقعة من أرض مصر.

أسمى **«نيل»** وُجدّت منذ أن شق النهر مجراه فى أرضنا فجلب لها الخصب والنماء، عشت كل هذه القرون بينكم أصاحب أجدادكم القدماء فى رحلات البناء الطويلة، وأرافق أباءكم فى مسيرة العمل من أجل رقى مصر وتقدمها، أشاركهم أحزانهم وأأسى لهزائمهم، أسعد بإنجازاتهم وأشيد بانتصاراتهم، أعشق كل ما هو مصرى فأطوف بأرجاء البلاد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، أبحث عن كل جديد، عن كل بناء وتقدم، أقضى النهار أحث أبناءها على بذل المزيد من الجهد، وأمسى لأحلم لها بغد أكثر إشراقا ومستقبلا يملأه الرقى والتحضر، أعتدت أن أصاحب الشيخ كثير النشاط والحركة **«تاريخ»** كلما جاء لزيارة أرضنا، أقص عليه أخبارها وأقدم له المساعدة ليسجل لها فى أوراقه جهد أبنائها وشموخ حضارتها، لهذا ستجدونى معكم عبر حكايات **«تاريخ»** وحوادث مصر وأخبارها.

موسوعة تاريخ مصر

المحرر : هشام الجبالى

الرسوم الداخلية : علاء حجازى

هانى طه - إيهاب وصفى

المراجعة اللغوية : شوقى هيكل

الجمع التصويرى : المكتب العربى للمعارف

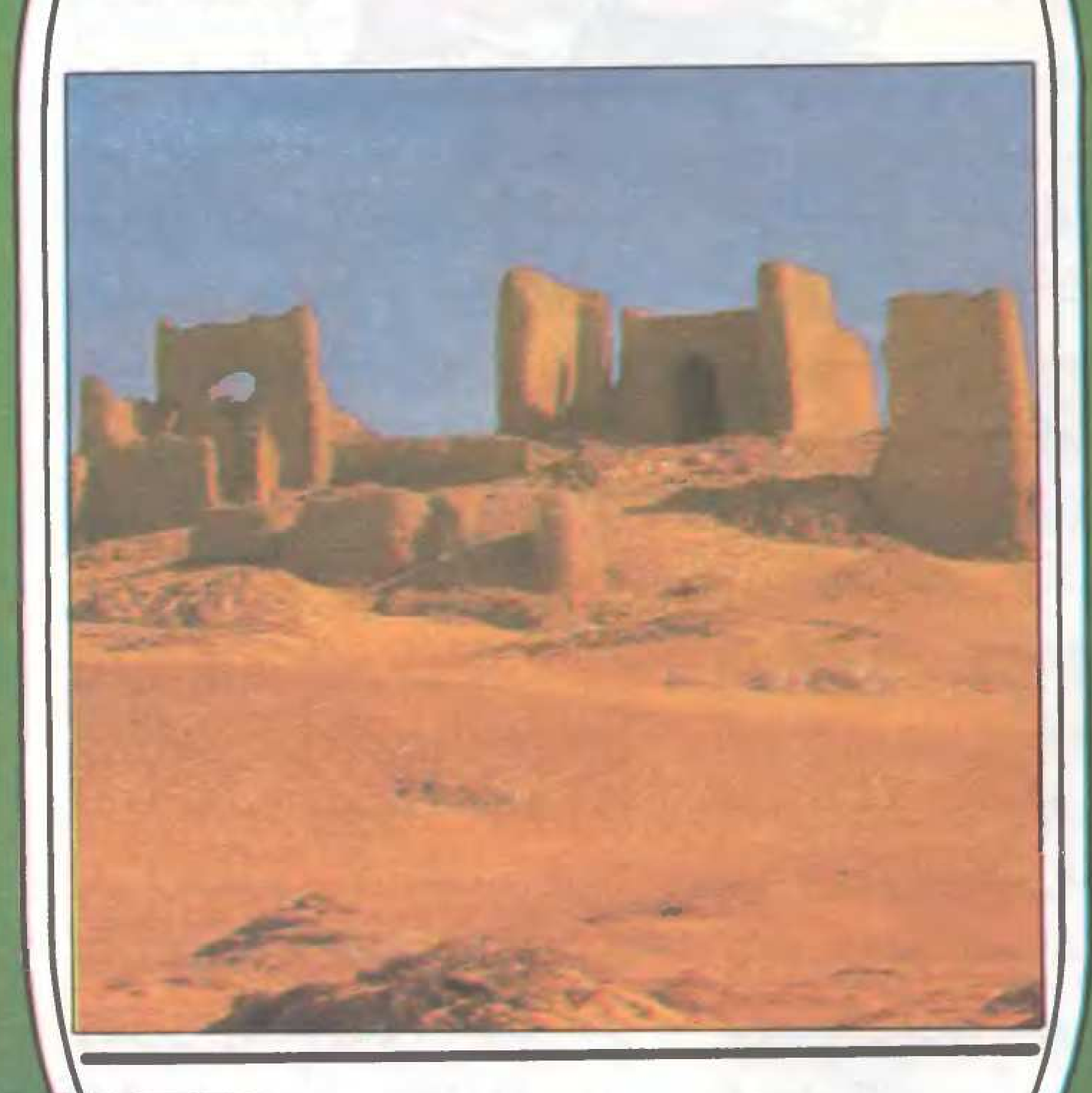
الإخراج : المكتب العربى للمعارف

رقم الإيداع : ١٩٩٤/٥٤٤١

الترقيم الدولى : I.S.B.N:977-276-018-5

موسوعة تاريخ مصر

مصر الرومانية



إعداد: هشام محب الحريبى

مـنـذُ أن قـاد ميـنـا جـيـوشَ الجـنـوبِ وحـقَّقَ لأرضِ الـــوادى والدلتا اندماجَها ووحدَتَها جالساً على عرشِ مصرَ



الموحدةِ ليكونَ أوَّلَ فراعنةِ الأسرةِ الأولى عامَ ٣٢٠٠ قبلَ الميلادِ، راحت بلادُكم تتقدَّمُ صفوفَ الأوطانِ والأممِ تقودُ مسيرةَ الإنسانيةِ الشاقةَ على طريقِ التحضرِ والمدنيةِ شوطًا من بعدِ آخَرَ تحتَ حكمِ أبنائِهَا الذين صنعوا من استقرارِ مُلْكِهِم وتحضرِ دولتِهم حياةً ثريةً نابضةً بالتقدمِ والرفعةِ، وعدا فتراتٍ قصيرةً متفرقةً تسلَّطَتْ فيها على أرضِهِمْ جموعُ الهكسوسِ الرعاةِ قبلَ سقوطِ دولةِ الفراعنةِ، والأشوريون والفرسُ، بعدَ سقوطِهَا .. تمتَّعَتْ مصرُ طَوَالَ ما يقربُ من ثلاثةِ آلافِ عامٍ بالحريةِ والاستقلالِ والريادةِ، وعبرَ كلِّ هذه الأعوامِ امتلأَتْ أوراقى بالكثيرِ من سطورِ المجدِ وصفحاتِ الفَخَارِ التى سجَّلَتْ أعمالَ ملوكٍ عظامٍ من مينا وزوسر وسنفرو وخوفو وأمنمحاتِ الثالثِ وحتى أحمسَ وتحتمس الثالثِ ورمسيسَ الثانى وبسمتكَ الأولِ.

وفى عامِ ٣٣٢ قبلَ الميلادِ غزَتْ جيوشُ الإسكندرِ بلادَكم، فخلَّصَتْهَا من الحكمِ الفارسيِّ ولكنه كان خلاصاً إلى احتلالٍ جديدٍ حيث سيطر عليها اليونانيون كواحدةٍ من أقاليمِ إبمراطوريةِ الإسكندرِ الشاسعةِ، ولما انهارَتْ هذه الإمبراطوريةُ بوفاةِ مؤسِّسِهَا وتفرَّقَتْ أقاليمُها بين قادةِ الجيوشِ كانت مصرُ من نصيبِ القائدِ المقدونىِّ بطليموس بن لاجوسَ، وتحتَ حكمِ ذلك القائدِ المقدونى الماهرِ دخلت بلادُ الفراعنةِ مرحلةً جديدةً من حياتِهَا

عادتْ خلالَها إلى الوجودِ دولةٌ قويةٌ وإمبراطوريةٌ تجلسُ على عرشِهَا أسرةٌ أجنبيةٌ هى أسرةُ البطالمةِ.

وقد بذلَ البطالمةُ فى بدايةِ عهدِهم الذى استمرَّ قرابةَ ثلاثمائةِ عامٍ الكثيرَ من الجهدِ فأثمرَتْ لهم بلادُكم ثمارَ القوةِ والثراءِ، ولكن أكثرَ خلفاءِ ابنِ لاجوسَ لم يكونوا فى تتابُعِهِمْ على العرشِ وتنازُعِهِمْ حولَه يمتلكون من براعةِ القيادةِ ومهارةِ الإدارةِ ما يكفلُ لهم قيادةَ دولتِهم وتنظيمَ شئونِ إمبراطوريتِهم مما أدَّى بهم إلى ضياعِ الإمبراطوريةِ وانهيارِ الدولةِ منذُ عهدِ بطلميوسَ الرابعِ، وشيئا فشيئًا وقع البطالمةُ تحتَ سيطرةِ وسلطانِ روما، حتى أنهم راحُوا يحتمُون بها من ثوراتِ شعبِ مصرَ الرافضِ لضعفِهم وتخاذلِهِمْ، وبين روما والإسكندريةِ ازدادت سيطرةُ الرومانِ على ملوكِ البطالمةِ الذين لم يزدادوا مع الوقتِ إلا وَهْنًا وبُعْدًا عن متطلباتِ الحكمِ والإدارةِ يصيبُ كلٌّ منهم بتخاذُلِه جسدَ الدولةِ البطلميةِ بجرحٍ جديدٍ، حتى إذا ماشارف هذا الجسدُ على التقاطِ أنفاسه الأخيرةِ ظهرت كليوباترا السابعةُ فتاةٌ متوهجةٌ بوهجِ الذكاءِ والطموحِ وملكةٌ قديرةٌ وسياسيةٌ بارعةٌ واستطاعَتْ أن تستميلَ إليها يوليوس قيصر ومارك أنطونيو من بعدِهِ وتمكنت من خلالِ هذَيْنِ القائدَيْنِ أن تبثَّ روحَ الشبابِ ودماءَ الحياةِ فى جسدِ الإمبراطوريةِ الضائعةِ والدولةِ المنهارةِ، وتعدَّت ذلك كلَّه لتفوزَ بحكمِ النصفِ الشرقىِّ من الإمبراطوريةِ الرومانيةِ قبلَ أن يدفعَها طموحُها إلى مغامرةٍ كبرى حاولَتْ فيها الاستيلاءَ على جميعِ أقاليمِ هذه الإمبراطوريةِ فى الشرقِ والغربِ بالوقوفِ إلى جانبِ مارك أنطونيو وتحفيزِهِ على مواجهةِ جيوشِ أكتافيوس فى أكتيوم، وكما كان ظهورُ كليوباترا بكلِّ هذه القوةِ وتتابعِ مغامراتِها ظاهرةً فذةً مدهشةً كانت نهايتُها بهزيمتِها وانتحارِهَا مأساةً عظيمةً.

وبهزيمةِ جيوشِ أنطونيو وكليوباترا اختتمت بلادُكم عصرَها البطلمىَّ

وانتظمت فى عقدِ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ المنتصرةِ، وبعدَ انتحارِ كليوباترا لم يَطُلْ مُقَامى فى مصرَ، إذ سرعانَ ما انطلقتُ فى رحلةٍ جديدةٍ إلى جنوبِ القارةِ الأفريقيةِ، ولم تستغرقْ رحلتى إلى الجنوبِ هذه المرةَ إلا وقتًا قصيرًا عدتُ بعدَه من جديدٍ إلى مصرَ فى نهايةِ عامِ ٢٩ قبلَ الميلادِ عازمًا على زيارتِهَا قبلَ أن أتابعَ ترحالى قاصدًا روما، فقد كان علىَّ قبلَ الذهابِ إلى عاصمةِ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ أن أقابلَ نيلاً لأعلمَ منه ما آلَتْ إليه شئونُ مصرَ بعدَ استيلاءِ أكتافيوسَ على أرضِهَا، وفى مصرَ ظللتُ ثلاثةَ أسابيعَ كاملةٍ أتنقَّلُ ما بين الوادى والدلتا قبلَ أن أعثرَ على ذلك الفتى فى طيبةَ هذه المدينةِ الشامخةِ التى عاشت أفراحَ الفراعنةِ وانتصاراتِهِمْ وتجمَّلَتْ بما شيَّدُوهُ فى ربوعِهَا من مسلاتٍ ومعابدَ، ففى صحراءِ طيبةَ وداخلَ مقبرةٍ فرعونيةٍ مهملةٍ لم يُستَكْمَلْ تشييدُهَا عثرتُ على نيلٍ بِرُفْقَةِ عشراتٍ من شبابِ مصرَ بعدَمَا كنتُ قد يَئِسْتُ تمامًا من ملاقاتِهِ أو معرفةِ موضعِهِ، وقبلَ أن تتساءلوا عن السببِ الذى جعلَ نيلاً ومن معه يلجئون إلى هذه المقبرةِ، دعونى أقصُّ عليكم جميعَ ماجرى فى ذلك اليومِ.

بصعوبةٍ شديدةٍ تمكَّنْتُ من انتزاعِ نيلٍ من بين رفاقِهِ، واصطحَبْتُهُ إلى خارجِ المقبرةِ ثم رحتُ أتوجَّهُ إليه متسائلاً: ما الذى جاء بك إلى هنا يانيلُ؟!

فنظر إلىَّ فى دهشةٍ بالغةٍ قائلاً: أنت إذن لم تعلمْ شيئًا عمَّا يدورُ فى بلادِنَا؟!

فقلتُ له: لقد استمعتُ إلى بعضِ أخبارِ الثورةِ، ولكننى بالطبعِ لا أعرفُ أسبابَهَا.

فقال: وهل تعلمُ ما كان من أمرِ كليوباترا وهزيمتَها؟!

فقاطعتُهُ قائلاً: أجَلْ أعلمُ كلَّ ذلك، فلتقصَّ علىَّ ما جرى من أحداثٍ بعد أن استولى أكتافيوسُ على مصرَ.

فقال: باستيلاءِ أكتافيوسَ على



نقوش بارزة بمقابر كوم الشقافة - القرن الأول

بلادِنَا وقضائِهِ على الأسرةِ البطلميةِ حدث ما كنتُ أتوقَّعُهُ وأخشاه، إذ تحولَّتْ مصرُ من دولةٍ حرةٍ تتمتَّعُ بالاستقلالِ على الرغمِ من جلوسِ البطالمةِ على عرشِهَا إلى مجردِ إقليمٍ رومانيٍّ يعتمدُ في تسييرِ شئونِهِ على إرادةِ روما التى لاتبغى إلا تحصيلَ الجزيةِ السنويةِ إلى جانبِ ما فرضه أكتافيوسُ من ضرائبَ قبلَ أن يرحلَ عن أرضِنَا عائدًا إلى عاصمةِ إمبراطوريتِهِ، أى أنَّ جزءًا كبيرًا من إنتاجِنَا فى المراعى والمناجمِ والمصانعِ والحقولِ يُرْسَلُ إلى روما تحتَ تهديدِ أسلحةِ جنودِهَا دونَ أن يكونَ لنا الحقُّ فى الانتفاعِ بما تخرجُهُ أرضُنَا وما يُنْضِجُهُ عملُ أيدينا، وفى وجهِ محصِّلِى الجزيةِ وجُبَاةِ الضرائبِ انطلقَتْ شرارةُ الثورةِ من طيبةَ لتمتدَّ

ألسنةُ نيرانِهَا إلى كافةِ أرجاءِ الوادى والدلتا.

فقلتُ له: وكيف واجَهَ الرومانُ هذه الثورةَيانيلُ؟

فقالَ: أقامَ أكتافيوسُ قائدَه كورنيليوس واليًا على مصرَ قبلَ رحيلِه، وما كادت الثورةُ تنتشرُ فى أرجاءِ البلادِ حتى قام أولُ الولاةِ الرومانيين بجمعِ جنودِه ومواجهةِ الثوارِ بكلِّ ما تجمَّعَ لديه من قوة، وأمام بطشِ الوالى وعنفِ جنودِه انحصرَتْ نيرانُ الثورةِ وتفرَّقَتْ صفوفُ الثوارِ حتى أننا لم نَجِدْ أمامَنَا فى نهايةِ الأمرِ بدًّا من الفرارِ إلى الصحراءِ والاختباءِ فى هذه المقبرةِ لنلتقطَ أنفاسَنا لعلَّنا نستطيعُ يومًا أن نعيدَ تنظيمَ صفوفنَا من جديد.

ولم يَكَدْ نيلُ يُتِمُّ حديثَه حتى انشقَّتْ رمالُ الصحراءِ عن أعدادٍ لا حصرَ لها من الجنودِ الرومانيين، وبينما أسرعَ نيلُ إلى داخلِ المقبرةِ ليقومَ بتحذيرِ رفاقِه، أسرعتُ أنا بالفرارِ وبنشاطٍ لم آلَفْهُ وقدرةٍ أُحْسَدُ عليها استطعتُ الهروبَ من الجندِ الذين ألقَوا القبضَ على كلِّ مَنْ كان بالمقبرة!

ومن مصرَ واصلتُ رحلتى إلى روما حيثُ قضيتُ ما يقربُ من خمسة أعوامٍ شاهدتُ خلالَها كيف وطَّدَ أكتافيوسُ سلطانَه على رأسِ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ التى ضمَّتْ تحتَ سيطرتِهَا جميعَ أقاليمِ البحرِ المتوسطِ شرقِه وغربِه، لتصيرَ مياهُهُ طريقًا ممهدًا يصلُ ما بين أقاليمِ إمبراطوريةٍ واحدة، ففى عامِ ٢٧ قبلَ الميلاد وضعَ تحتَ تصرفِّه المباشرِ أقاليمَ الإمبراطوريةِ المهمةَ وفى مقدمتِهَا مصرُ آخرُ ماسقطَ فى سلَّةِ الرومانِ من أقاليمَ وأهمُّ ما احتفلُوا بفتحه من أوطانٍ، فأهميةُ مصرَ لاتتركَّزُ فقط فى ثرواتِهَا الزراعيةِ الضخمة، بل فى تُرَاثِهَا أيضًا فلا أحدَ يُمْكِنُهُ أن يتناسَى ماضِىَ هذه الأمةِ وأمجادَهَا وهى التى صاغتْ أبجديةَ الحضارةِ التى ظلَّ وسيبقى الإنسانُ يؤلِّفُ من مفرداتِهَا أسبابَ تقدُّمه وأصولَ مدنيتِهِ جيلاً من بعد آخَرَ،

ولأهميةِ مصرَ واشتهارِ أهلِهَا بالثورةِ ورَفْضِ الحكمِ الأجنبيِّ اتخذَ أكتافيوسُ الذى أطلقَ عليه الرومانيون اسم أغسطسَ نُظُمًا صارمةً لضمانِ أمنِهَا فى الداخلِ، كما عَمِلَ على صيانَتِهَا من أىِّ خطرٍ خارجىٍّ حتى أنه منعَ كبارَ رجالِ الحكمِ فى روما من الإقامةِ بها أو زيارتِهَا دونَ إذنٍ خاصٍّ منه.

ومن روما تابعتُ أسفارى ورحلاتى التى لا تنتهى إلى كلِّ بقاعِ الدنيا، ومع تعددِ رحلاتى إلى روما أعظمِ إمبراطورياتِ العالمِ أبعدتنى السنونُ الطوالُ عن أرضِ مصرَ، إلى أن كانت زيارتى التاليةُ لها فى نهايةِ عامِ ١٧٢ بعدَ الميلادِ (١). وما أشبه ثانى زياراتى لمصرَ الرومانيةِ بزيارتى الأولى على الرغمِ من أنه قد فَصَلَ بينهما أكثرُ من مائَتَىْ عامٍ!

فما إن قدمتُ إلى بلادِكم وبدأتُ بحثى المعتادَ عن نيلٍ، حتى رحتُ أستمعُ إلى أخبارِ الثورةِ التى اندلعَتْ فى ربوعِهَا حينما التفَّتْ جموعُ الشعبِ حولَ الكاهنِ المصرىِّ إزيدور ثائرين فى وجهِ الحاكمِ الرومانى، ومن شمالِ الدلتا قاد إزيدورُ الجموعَ الثائرةَ بمهارةٍ شديدةٍ، فعجَزَتِ القواتُ الرومانيةُ المتواجدةُ فى مصرَ عن صدِّها ووقفَ زحفُها الذى كاد يقتحمُ الإسكندريةَ نفسَها قبلَ أن تضطرَّ الإمبراطوريةُ إلى إرسالِ المزيدِ من قواتِهَا المتمركزةِ فى سوريا وعلى رأسِهَا القائدُ الرومانى أفيديوس كاسيوس الذى استطاع بدهائِه أن يضعفَ من قوةِ الثوارِ بالحِيَلِ والمكائدِ بعدما تأكَّدَ من عبثِ محاولةِ القضاءِ عليهم بالقوة، فكان نجاحُه فى اختراقِ صفوفِهِمْ وبَذْرِ بذورِ الشقاقِ بينهم عاملاً أساسياً فى القضاءِ عليهم وتحويلِهِمْ إلى مجموعاتٍ صغيرةٍ هاربةٍ من وجهِ البطشِ الرومانى، ووسطَ إحدى هذه المجموعاتِ أقام نيلٌ فى مستنقعاتِ الدلتا وهناك وبعدَ ثلاثةِ أسابيعَ من البحثِ الدائمِ والعناءِ المستمرِّ كان عثورى عليه داخلَ أحدِ الأكواخِ المشيَّدَةِ بالغابِ، لأتوجَّهَ إليه

(١) التواريخ المذكورة فيما يلى بعد الميلاد مالم يصرح بغير ذلك.

متسائلاً: أَلَمْ يَعُدْ لديك عملٌ آخَرُ غيرُ الاشتراكِ فى الثوراتِ يانيلُ؟!

فقال: إن موضعى الطبيعىَّ هنا بين أبناءِ وطنى الذين يطالبون باستقلالِ مصروحريتِها...

فقاطعتُه قائلاً: حسنًا، لقد بذلتُ الكثيرَ من الجهدِ والوقتِ حتى تمكَّنْتُ من العثورِ عليكَ ولم يعدْ لدىَّ المزيدُ الذى أضيِّعُهُ، فلتقُصَّ لى على الفورِ جميعَ ماجرى فى بلادكم منذُ أن قضتْ روما على ثورتِكم الأولى.

فقال: بعد أن انتهى أولُ الولاةِ الرومانيين من القضاءِ على الثورةِ التى أعقبت رحيلَ أكتافيوس، أخذ يحاولُ تأمينَ حدودِ مصرَ الجنوبيةِ، وبعدما تمكَّنَ من عقدِ الصلحِ مع جيرانِنَا الأثيوبيين راح يحتفلُ بنجاحِهِ فى القضاءِ على الثورةِ وتأمينِ الحدودِ بإقامةِ تماثيلِهِ فى أرجاءٍ متفرقةٍ من البلادِ ونقشِ أعمالِه على جدرانِ المعابدِ فى فيلَةَ مما أغضبَ عليه أكتافيوسَ، فقام بعزلِهِ ثم أمرَه بسرعةِ المثولِ بين يديه فى روما، ولكنَّ الوالىَ توقَّعَ سوءَ العاقبةِ فأقدمَ على الانتحارِ خوفًا من غضبِ أكتافيوسَ.

فقلتُ له: ولماذا يغضبُ أكتافيوسُ من احتفالاتِ الوالى بنجاحِهِ يانيلُ؟!

فقال: إن ماحدث بين الوالى وأكتافيوسَ يبيِّنُ كيفيةَ توزيعِ سلطاتِ الإدارةِ فى مصرَ تحتَ الحكمِ الرومانى، فالإمبراطورُ صار ملكَ البلادِ وفِرْعَوْنَهَا الذى له الحقُّ دونَ سواه فى أن يقيمَ لنفسه التماثيلَ فى ربوعِها وأن ينقشَ صُوَرَهُ على جدرانِ معابدِها وعلى رأسِهِ تاجُها المزدوجُ إلى جوارِ اسْمِهِ المنقوشِ بالحروفِ الهيروغليفيةِ.

فقلتُ له: وإذا كان إمبراطورُ روما قد حلَّ محلَّ فراعنةِ مصرَ وملوكِها، فماذا يكونُ عملُ الوالى إذن؟

فقال: مع احتفاظِ الإمبراطورِ الرومانى بجميعِ السلطاتِ الشكليةِ فى مصرَ، لم يكنْ ليتاحَ له بطبيعةِ الحالِ أن يمارسَ مهامَّ الإدارةِ فيها بنفسه، لذلك كان عليه أن يَعْهَدَ بالإدارةِ إلى من يختارُه واليًا عليها، فالوالى إذن هو

الحاكمُ الفعلىُّ للبلادِ الذى يقيمُ فى عاصمتِهَا الإسكندريةِ ويقومُ بقيادةِ الجندِ ورئاسةِ القضاءِ والإشرافِ على ماليةِ البلادِ التى تعتبر من أهمِّ اختصاصاتِه، حيث يلتزمُ بجبايةِ الضرائبِ ومتابعةِ نقلِهَا إلى روما، وعلى الرغمِ من تمتُّعِهِ كما ترى بكلِّ السلطاتِ التى كان يتمتَّعُ بها البطالمةُ من قبلُ فقد ظلَّ فى كلِّ ذلك نائبًا عن الإمبراطورِ الذى يقومُ بتعيينِه كما يعيِّنُ له كبارَ موظفى الإدارةِ القائمين على مساعدتِه، كالمساعدِ القضائىِّ المسئولِ عن عدمِ تعارضِ قوانينِ مصرَ ونظمِهَا الإداريةِ مع نظمِ روما وقوانينِهَا وهو أيضا الذى يحلُّ محلَّ الوالِى عند غيابِهِ أو وَفَاتِهِ انتظارًا لعودتِه أو لمن يخلُفُه، وكذلك المشرفُ على المخازنِ الذى يتولَّى جمعَ الغلالِ وتخزينها والمشرفُ على أملاكِ الإمبراطورِ وغيرُهم ممَّنْ يتولَّوْا مناصبَ الإدارةِ العليا.

فقلتُ له: وعدا ذلك، هل أحدثَ الرومانيون تغيراتٍ كبيرةً فى نظمِ الإدارةِ المصريةِ يانيلُ؟



إناء من الفخار الملون

فقال: ظلَّتِ القوانينُ والنظم التى ابتدعَهَا الفراعنةُ لإدارةِ شئونِ مصرَ ثابتةً، لم يدخلْ عليها من التغييراتِ إلا بعضُ التعديلاتِ البسيطةِ من عصرٍ إلى آخَرَ، ولمَّا جاء الرومانيون حافظوا على هذه القوانينِ وتلك النظمِ

إلى حدٍّ بعيدٍ، لأنهم رأوْا فيها الطريقةَ المثلى لتسييرِ شئونِ البلادِ، فبَعْدَ الإمبراطورِ وفى قمةِ مراتبِ الحكمِ يجلسُ الوالى ومنْ حوْلِه كبارُ المساعدين يليهم الحكامُ الثالثةُ للأقاليمِ الثلاثةِ الرئيسيةِ مصر العليا ومصر الوسطى والدلتا وهؤلاء يشرفون على شئونِ أقاليمِهَا ويقومون بتقديمِ تقاريرَ دوريةٍ عن أعمالِهِمْ إلى الوالى بعدما يكونون قد تلقَّوْا بدورِهم مجموعاتِ التقاريرِ من حكامِ المقاطعاتِ والقُرَى.

فقلتُ له: وكيف تسيرُ الأمورُ إذن فى المقاطعاتِ والقُرَى؟

فقال: استمرَّتْ نظمُ الإدارةِ فى المقاطعاتِ على ما كانت عليه من قبلُ، فكلُّ إقليمٍ من أقاليمِ البلادِ الثلاثةِ مقسمٌ إلى مجموعةٍ من المقاطعاتِ على رأسِ كلٍّ منها حاكمٌ يتمُّ اختيارُهُ عادةً من بين المصريين أو اليونانيين الذين ظلُّوا مقيمين فى مصرَ ويعاونُه عددٌ كبيرٌ من الموظفين فى الإشرافِ على شئونِ المقاطعاتِ التى ظلت تتمتَّعُ ببعضِ الاستقلالِ فى تسييرِ شئونِهَا الخاصةِ، وتنقسمُ كلُّ مقاطعةٍ إلى مجموعةٍ من القُرَى يرأسُ كُلاًّ منها كاتبُ القريةِ الذى يُعَدُّ أكبرَ الموظفين فيها فهو المسئولُ عن مراقبةِ سَيْرِ الأمورِ فيها وإمدادِ الحكومةِ الرومانيةِ بالمعلوماتِ الضروريةِ عن قوائمِ سُكَّانِهَا ومقدارِ ملكيةِ كُلٍّ منهم، وكذلك مقدارُ الفيضانِ وأنواعُ المزروعاتِ وكمياتُ المحاصيلِ ليتيَسَّرَ للحكومةِ تحديدُ مايَقَعُ عليهم من ضرائبَ وما يفرضُ عليهم من خدماتٍ إجباريةٍ كبناءِ السدودِ وإقامةِ الجسورِ وتطهيرِ القنواتِ وحفرِ الترعِ.

فقلتُ له: وماذا عن الجيشِ الرومانيِّ فى مصرَ؟

فقال: كانت القوةُ العسكريةُ من أهمِّ العواملِ التى وطَّدَتْ سلطانَ روما فى مصرَ، حيث أقام الرومانيون حامياتِ جنودِهِمْ فى جميعِ الأماكنِ المهمةِ على طولِ الطريقِ من الإسكندريةِ وشمالِ الدلتا وحتى طيبةَ وجنوبِ الوادى، ولأن أكتافيوسَ كان يدركُ منذُ البدايةِ مدى أهميةِ مصرَ



تابوت من المرمر .. القرن الثانى الميلادى

وماترسلُهُ إلى روما من حبوبٍ غذائية، ولأنه كذلك كان يعلمُ مبلغَ صعوبةِ السيطرةِ على أهلِهَا وإرغامِهِمْ على قَبُولِ حكمٍ أجنبىٍّ فقد خصَّ بلادَنا بأعدادٍ من الجندِ تفوقُ أعدادَ الحامياتِ فى أىِّ ولايةٍ رومانيةٍ أخرى، ولكنه ما إن استتبَّ الأمرُ للرومانِ حتى خُفِّضَتْ أعدادُ جنودِهِمْ وصارت الإسكندريةُ دونَ سواها مقرَّهُمُ الدائمُ، فيها يقيمون ومنها تصدرُ لهم الأوامرُ عندَ الحاجةِ بالتحركِ إلى أىِّ موضعٍ داخلَ البلادِ وخارجَهَا، وإلى جانبِ الأعمالِ العسكريةِ كثيراً ما اعتمدت روما على جيشِهَا فى أعمالِ الأمنِ والشرطةِ وخاصةً أعمالَ المساعدةِ فى جمعِ الضرائبِ.

فقلتُ له: لقد عَلاَ نجمُ روما فى سماءِ العالمِ بفضلِ تفوقِ قوتِهَا العسكريةِ وتميُّزِ جنودِهَا بالمهارةِ وحسنِ التدريبِ وبراعةِ التنظيمِ، ولابد وأن يكونَ ذلك التفوقُ قد ساعدَهَا كثيراً فى فرضِ سيطرتِهَا على جميعِ ولاياتِهَا المنتشرةِ على طولِ مياهِ البحرِ المتوسطِ بما فيها مصرُ.

فقال: أَجَلْ يا أبتى، ولكنَّ الرومانَ لم يكتفُوا بالاعتمادِ على قوتِهِم العسكريةِ فى السيطرةِ على بلادِنَا، بل كثيرًا ما لجئُوا للحيلِ السياسيةِ يألِّبُونَ سكانَ مصرَ من مصريين ويونانيين وليبيين وآسياويين بعضَهم على بعضٍ تارةً ويسعَوْنَ إلى زيادةِ الفروقِ بين طبقاتِهِم الاجتماعيةِ تارةً أخرى، فحينما فرضَ أكتافيوسُ علينا ضريبةَ الرأسِ أعفى الإسكندريين من دفعِها فى نفسِ الوقتِ الذى فرض فيه على سكانِ القُرَى أضعافَ ما قامَ بفرضِهِ على سكانِ عواصمِ المقاطعاتِ فى المدنِ الكبرى.

فقلتُ له: حسنًا يانيلُ، فَلْتَقُصَّ علىَّ إذنْ ما جرى بعد انتحارِ أولِ الولاةِ الرومانيين.

فقال: بعد انتحارِ أولِ الولاةِ كان أمرُ مصرَ قد استتبَّ لروما التى افتتحَ واليها الجديدُ أعوامَ ولايتِه بحملةٍ عسكريةٍ إلى جنوبِ البحرِ الأحمرِ، حيث قام بإخضاعِ القبائلِ العربيةِ التى كانت تتحكَّمُ حينئذٍ فى جانبٍ كبيرٍ من التجارةِ العالميةِ القادمةِ من الهندِ وشرقى آسيا فى طريقِهَا إلى الشمالِ والغربِ، لتتحولَ معظمُ هذه التجارةِ إلى الإسكندريةِ ومنها إلى شمالى العالمِ وغربِهِ، وبعدَ نجاحِ هذه الحملةِ تفرَّغَ الوالى تمامًا لتنفيذِ خططِ أكتافيوسَ التى وضعَها لإصلاحِ اقتصادِ مصرَ وتجديدِ ينابيعِ الإنتاجِ فيها.

فقلتُ له: لقد اهتمَّ أكتافيوسُ إذن بشئونِ مصر ذلك الاهتمامَ الذى جعلَه يضعُ الخططَ لإصلاحِ الاقتصادِ فيها.

فقال: إن إصلاحَ اقتصادِ بلادِنَا والخروجَ بها من عثراتِ الفوضى التى أعقبت انهيارَ دولةِ البطالمةِ يعيدُ لها دونَ شكٍّ الكثيرَ مما عرف عن وفرةِ إنتاجِهَا وعظيمِ خيراتِهَا، وبزيادةِ ما تخرجُهُ أرضُها وما تنتجُه مصانعُها تزدادُ قيمةُ الضرائبِ التى تُصَبُّ نهايةَ الأمرِ فى خزائنِ الرومانِ، فإصلاحاتُ أكتافيوسَ كما ترى لم تكُ تهدُفُ إلى رقيٍّ بلادِ الفراعنةِ وتطوُّرِ حياةِ أهلِهَا بقدرِ ما كانت تبغِى تحقيقَ أهدافِ الإمبراطوريةِ وصالحَ خزائنِهَا، فلكى تمتلىءَ بطونُ الرومانيين بقمحِ مصرَ وفاكهتِهَا وتمتلىءَ خزائنُهم بذَهَبِهَا وفِضَّتِهَا، قام الوالى بشقِّ الترعِ وتنظيفِ القنواتِ ومدِّ الجسورِ واجتهد فى تنميةِ الصناعاتِ وتشغيلِ المحاجرِ والمناجمِ، ولم يَنْسَ أيضا أن ينقلَ ملكيةَ جميعِ المعابدِ المصريةِ إلى الدولةِ فيضمنَ بذلك زيادةَ أملاكِ الإمبراطورِ فى مصرَ من جانبٍ، والقضاءَ على ما تبقَّى لكهنةِ المعابدِ من نفوذٍ وثرواتٍ من جانبٍ آخَرَ.

فقلتُ له: بعد غزوِه لمصرَ ظلَّ أكتافيوسُ على رأسِ حكومةِ الإمبراطوريةِ ما يقربُ من أربعةٍ وأربعين عامًا، تأكَّدَتْ خلالَها سيطرةُ الرومانِ على ولاياتِهِم المنتشرةِ على طولِ شواطىءِ البحرِ المتوسط، حتى إذا ما تُوُفِّىَ ذلك القائدُ الذى يُعَدُّ بحقٍّ أكبرَ مَنْ ساهَمَ فى تأسيسِ قواعدِ الإمبراطوريةِ وإرساءِ نظمِ الإدارةِ فيها، تولى الإمبراطورُ تيبريوسُ الحكمَ طوالَ ثلاثةٍ وعشرين عامًا سُجِّلَ له خلالَها الكثيرُ من الأعمالِ التى تتصفُ بالكثيرِ من القسوةِ والعنفِ وحبِّ الشهوات، فما الذى جرى فى بلادِكُمْ خلالَ أعوامِ حكمِه؟

فقال: على الرغمِ من كلِّ ما عُرِفَ عن ذلك الإمبراطورِ فى روما من قسوةٍ وميلٍ للشهواتِ واللهوِ، امتازَ حكمُه بالحزمِ فى إدارةِ شئونِ الولاياتِ واتسمت أعمالُه فيها بالمهارةِ

وبُعْدِ النظرِ، فحينما راح الوالى الرومانىُّ فى مصرَ يبالغُ فى تقديرِ الجزيةِ ويتشدَّدُ فى جمعِهَا عنَّفَهُ تيبريوس وردَّه عن ذلك لإدراكِه أن إرهاقَ المصريين وزيادةَ أعبائِهِمْ لابد وأن تؤدِّىَ فى المستقبلِ القريبِ إلى تدهورِ اقتصادِ البلادِ بعدما بدأت إصلاحاتُ أكتافيوسَ تثمرُ ثمارَ النهضةِ فى شتى مجالاتِ الإنتاجِ فيها، فلم يحاولْ تيبريوس زيادةَ ما يَحْصُلُ عليه من ثرواتِ بلادِنَا بزيادةِ ما يفرضُه عليها من جزيةٍ، بل حاول زيادتَه بمتابعةِ الإصلاحِ وتنميةِ الإنتاجِ، حيث كان أهمُّ أعمالِه فى مصرَ إصدارَهُ لعملةٍ مصريةٍ جديدةٍ تساوى قيمةَ العملةِ الرومانيةِ، مما أدى إلى تنظيمِ تقديرِ الجزيةِ وسهولةِ جمعِهَا وانتعاشِ حركةِ التجارةِ بين الإسكندريةِ وسائرِ ولاياتِ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ.

فقلتُ له: فى عامِ ٣٧ كانت وفاةُ تيبريوس وولايةُ الإمبراطورِ كاليجولا، الذى لم يَدُمْ حكمُهُ طويلاً إذ سرعان ما انتهى بعد مايقربُ من أربعةِ أعوامٍ بمقتلِه على يد مجموعةٍ من خدمِ قصرِه، وبعد مقتلِه وقعَ اختيارُ قادةِ الجندِ الرومانيين على كلوديوس الذى قاد الإمبراطوريةَ باقتدارٍ ومهارةٍ طوالَ ثلاثةَ عشرَ عامًا.

فقال: لقد عانَتْ بلادُنا خلال سبعةَ عشرَ عاما هى التى تولَّى فيها حكمَ الإمبراطوريةِ كلٌّ من كاليجولا وكلوديوس من فوضى الاضطراباتِ التى كان سببُها اشتعالَ الصراعِ بين طوائفِ السكانِ فى الإسكندريةِ من جانبٍ، وتزمُّرِ المصريين من التبعيةِ للحكمِ الرومانى من جانبٍ آخَرَ، غيرَ أن ولاةَ الإمبراطوريةِ فى مصرَ بذلُوا جهدًا شاقًا فى مواجهةِ هذه الاضطراباتِ حتى تمكَّنُوا من القضاءِ عليها قبلَ انتهاءِ عهدِ كلوديوس وتَوَلِّى نيرونَ الحكمَ عامَ ٥٤.

فقلتُ له: أجلْ يانيلُ، فمن بعدِ كلوديوس وعلى مدى أربعةَ عشرَ عامًا عاشت الإمبراطوريةُ الرومانيةُ تحتَ حكمِ نيرونَ وتأثرت بغلظتِه وافتقارِه



المسرح الرومانى .. القرن الثانى الميلادى

لمقوماتِ الحكمِ ومتطلباتِ القيادة، ولكن ما كانت قد ارتقَتْ إليه روما منذُ نشأتِهَا وحتى نهايةِ عهدِ كلوديوسَ من قوةٍ ومنعةٍ كفلَ لها مواصلةَ تقدُّمِهَا وسيطرتِهَا على مقاليدِ الحكمِ فى ولاياتِهَا برغمِ تهوُّرِ إمبراطورِهَا وعدمِ اتزانِ أفعاله.

فقال: مع كل ما اتصفَ به ذلك الإمبراطورُ من غلظةٍ وتهورٍ، كان ميالاً إلى الفنِّ شغوفًا بتراثِ الإنسانيةِ الحضارىِّ، وقد جعله هذا الميلُ وذلك الشغفُ يحملُ لبلادِنَا الكثيرَ من التقديرِ والإعجابِ، لذا عندما ساءت العلاقةُ بين روما والأثيوبيين اعتزمَ نيرونُ أن يقودَ بنفسِهِ حملةً حربيةً لتأمينِ حدودِ إمبراطوريته الجنوبية، قاصداً من وراءِ ذلك تحقيقَ رغبتِهِ الشديدةِ فى زيارةِ مصرَ والاطِّلاَعِ

على آثارِ حاضرتِهَا في طريقِهِ إلى أثيوبيا.

فقلتُ له: ولكنه لم يَقُمْ بهذه الحملةِ، أليس كذلك؟

فقال: بَلَى، فقبلَ أن يتوجَّهَ على رأسِ جنودِه صوبَ مصرَ وأثيوبيا اندلعت الاضطراباتُ في فلسطين، فاضطر أن يحولَ جهدَه لقمعِ هذه الاضطرابات، ولكنه ظل على الرغمِ من عدمِ تمكُّنِهِ من زيارةِ بلادِنَا شغوفًا بحضارتِهَا حتى أنه حينما حاصرَتْهُ ثوراتُ الجندِ في أواخرِ عهدِهِ، فكَّرَ في أن يعتزلَ حكمَ الإمبراطوريةِ ويكتفي بتقلُّدِ ولايةِ مصرَ، ولابد وأنك تعلم عما جرى في روما خلالَ تلك الفترةِ المضطربةِ أكثرَ مما أعلمُه.

فقلتُ له: لقد أدَّى تهوُّرُ نيرونُ وكثرةُ أعمالِه الوحشيةِ إلى تعدُّدِ ثوراتِ الجندِ الرومانيين من حَوْلِهِ، حيث ثارَتْ كتائبُ الجندِ في أسبانيا وزحفَتْ صوبَ روما تنادي بقائدِهَا جَالْبَا إمبراطورًا للبلادِ، وأمامَ إصرارِ الجندِ على عزلِهِ لم يجدْ نيرونُ مفرًا من الانتحارِ، ليفوزَ جَالْبَا بحكمِ الإمبراطوريةِ لبضعةِ أشهرٍ، سرعانَ ما اشتعلَتْ بعدَهَا ثوراتُ الجندِ من جديدٍ بعدما اتخذَ قادةُ كتائبِ الولاياتِ الغربيةِ من نجاحِ جالبا دافعًا للمغامرةِ ومحاولةِ الوصولِ إلى الحكمِ، وهكذا تتابع على عرشِ الإمبراطوريةِ ثلاثةُ أباطرةٍ هم جالبا وأوتو وفيتليوس في أقلَّ من عامٍ واحدٍ، وحتى ولاية فيتليوس لم يكن لكتائبِ الولاياتِ الشرقيةِ فيما يجري دورٌ يذكرُ، ولكنه ما إن استقرَّ له الحكمُ حتى أعلن فسبسيان قائدُ الكتائبِ في سوريا نفسَه إمبراطورًا للبلادِ.

فقال: أجلْ يا أبتي، ففي بدايةِ عامِ ٦٩ وبينما كان فيتليوس ما يزالُ جالسًا على عرشِ الإمبراطوريةِ في روما يتمتَّعُ بمناصرةِ وتأييدِ كتائبِ جندِ الولاياتِ الغربيةِ، راح فسبسيان يجمعُ حولَه جندَ الشرقِ محاولاً الاستيلاءَ على الحكمِ، وظلَّ موقفُه ضعيفًا إلى أن أعلن والي مصر مبايعتَه والوقوفَ إلى جانبِهِ، ومن خلفِهِ أعلن جيشُ الإسكندريةِ ولاءَهم

للإمبراطورِ الجديدِ، عندئذٍ رجحَتْ جبهةُ فسبسيان الذى عزم على الذهابِ إلى مصرَ لكى يقبضَ على زمامِ الحكمِ فيها ويمنعَ إرسالَ ما تنتجُهُ من قمحٍ إلى عاصمةِ الإمبراطوريةِ متخذًا من ذلك وسيلةً للضغطِ على خَصْمِهِ، ولكنه لم يضطرَّ إلى تنفيذِ هذه الخطةِ.

فقلت له: ولماذا لم يَقُمْ بتنفيذ خُطَّتِهِ؟

فقال: لم يضطرَّ إلى ذلك لأن جنودَ كتائبِ الغربِ حينما تأكَّدُوا من تفوُّقِهِ أسرعوا يعلنون له الولاءَ الذى مهَّدَ إقامةَ الطريقِ إلى روما، ومع أنه لم يستطعْ أن يقضىَ تماماً على حكمِ فيتليوس إلا فى نهايةِ عامِ ٦٩، فقد اتخذ من تأييدِ مصرَ له فى منتصفِ نفسِ العامِ تاريخًا رسمياً لبدايةِ حكمِهِ، وقبل أن يذهبَ إلى روما ليجلسَ على عرشِ الإمبراطوريةِ حضر إلى الإسكندريةِ فى أولِ زيارةٍ لإمبراطورٍ رومانى منذُ عهدِ أكتافيوسَ حيث استقبلَه المصريون استقبالاً رائعًا ظنّاً منهم أنه سيُنْهِى معاناتِهِمْ الطويلةَ تحتَ حكمِ أباطرةِ الرومانِ، أو أنه سيخفِّفُ بعضَ هذه المعاناةِ اعترافًا منه بدورِ بلادِهِم البارزِ فى تنصيبِهِ حاكمًا للإمبراطوريةِ.

أوزة من الزجاج الملون .. القرن الثانى

فقلتُ له: وهل صَدَقَ ظنُّ المصريين فى فسبسيانَ يانيلُ؟

فقال: لم يكد فسبسيان يشعرُ بثباتِ موقفِه واستقرارِ عرشِ الإمبراطوريةِ بين يديه، حتى ظهر واضحًا أنه ليس إلا واحداً من هؤلاءِ الأباطرةِ الرومانيين الذى لاهمَّ لهم سوى ملءِ خزائنِهِم بأموالِ الجزيةِ

التى ظلَّ المصريون يعانون من ثقلهَا طوالَ أعوامِ حكمِه العشرة.

فقلتُ له: فى عام ٧٩ توفى فسبسيان ولم يستغرقْ حكمُ خَلَفه تيتوس سوى ثلاثةِ أعوامٍ انتقل بعدَها عرشُ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ إلى دومتيان الذى استمرَّ حكمُه قرابةَ خمسةَ عَشَرَ عامًا، فهل حدثَ خلالَ هذهِ الفترةِ شىءٌ من التغيُّرِ فى سياسةِ روما تجاهَ مصرَ؟

فقال: أظهرَ كلٌّ من تيتوس ودومتيان بعضَ مظاهرِ الاهتمامِ تجاهَ شعبِ مصرَ، حيث توددَ تيتوسُ إلى المصريين وقام دومتيان بإنشاءِ عدةِ معابدَ لرموزِ مصرَ المقدسةِ كسرابيس وإيزيس فى عاصمةِ الإمبراطورية، وعدا هذه المظاهرَ الشكليةَ ظلَّ المصريون يعانون من سياساتِ روما وطرقِ إدارتها لشئونِ ولاياتها فى عَهْدَيْهِمَا، وكذلك عهدُ خَلَفَيْهِمَا الإمبراطورِ نيرْفَا الذى لم يَدُمْ جلوسُه على العرشِ أكثرَ من عامَيْن.

فقلتُ له: وما الذى حدثَ فى عهدِ الإمبراطورِ تراجان الذى استمرَّ نحوَ تسعةَ عشرَ عامًا؟

فقال: بالإضافةِ إلى تجدُّدِ الصراعاتِ بين طوائفِ السكانِ فى الإسكندريةِ، شهد عهدُ تراجان الكثيرَ من الأحداثِ المهمةِ حيث تعرضت بلادُنا لانخفاضِ منسوبِ مياهِ الفيضانِ وزادت معاناةُ أهلها من سوءِ الإدارةِ الرومانيةِ وتعسُّفِ ولاتها.

فقلتُ له: لقد تابعتُ فى روما محاكمةَ تراجان لأحدِ ولاةِ مصرَ، ورأيتُ كيف اتَّهَمَ وفدُ الإسكندريةِ ذلك الوالى بالتعسفِ ومخالفةِ القوانينِ





رسومات ملونة بإحدى مقابر الإسكندرية .. القرن الأول

وكيف قرَّرَ الإمبراطورُ استبعادَهُ من الولايةِ قبلَ أن يدفعَه ما سمعه من الإسكندريين إلى زيادةِ الاعتناءِ ببلادِ الفراعنةِ وشئونِهَا، حيث بادرَ فأرسلَ إليها أسطولاً محملاً بالغلالِ التى كانت محفوظةً لحاجةِ روما عندما انتشرت المجاعاتُ الناتجةُ عن انخفاضِ منسوبِ الفيضانِ، فكان هذا الاهتمامُ إلى جانبِ انتصارِهِ للإسكندريين من الوالى عاملاً مهما أدَّى دونَ شكٍّ إلى الحدِّ من معاناةِ المصريين وتحقيقِ الاستقرارِ لبلادِهِمْ.

فقال: إن قيامَ تراجان بعزلِ الوالى وإرسالِ الغلالِ إلى بلادِنَا لا يعبِّرُ عن حدوثِ تغييرٍ جذْرِىٍّ فى سياسةِ روما تجاهَ ولاياتِهَا، هذه السياسةُ التى ما تزالُ إلى اليومِ تعتمدُ فى فرضِ سلطانِهَا وتحقيقِ أهدافِهَا على القوةِ

العسكرية، فهو لم يَقْضِ على الاضطرابات وينجحْ فى إعادةِ بعضِ الاستقرارِ للبلادِ إلا بتعزيزِ قوتِهِ العسكريةِ فيها وإقامتِهِ للدفاعات والحصونِ كحصنه عندَ رأسِ الدلتا (١) الذى ظلَّ منذ نشأتِهِ من أهمِّ نقاطِ الدفاعِ الرومانيةِ فى مصرَ.

تمثال من الخشب لرمز الإسكندرية المقدس .. سرابيس

(١) حصن بابليون بمصر القديمة.

فقلتُ له: حسنًا يانيلُ، وماذا عن عهدِ الإمبراطورِ هادريان؟

فقال: جلس هادريان على عرشِ الإمبراطوريةِ عامَ ١١٧ واستمرَّ حكمُهُ ما يقربُ من واحدٍ وعشرين عامًا كان أهمُّ حدث فيها هذه الزيادةَ التى أرادَ هادريان من خلالِهَا الاطلاعَ على أوضاعِ الولاياتِ الشرقيةِ ومن بينها مصرُ التى حضرَ إليها عن طريقِ فلسطينَ وشبهِ جزيرةِ سَيْنَاءَ فى شتاءِ عامِ ١٣٠ وأبحرَ من الدلتا عبرَ النهرِ إلى طيبةَ لمشاهدةِ جانبٍ مما تزخرُ به هذه المدينةُ من آثارٍ فرعونيةٍ، وبعدَ انتهاءِ رحلتِهِ فى الجنوبِ عاد إلى الدلتا ومنها إلى الإسكندريةِ حيث اهتمَّ اهتمامًا عظيمًا بدارِ العلومِ والمكتبةِ، فأعلن حمايتَه لهما مما أدَّى إلى عودةِ ازدهارِ العلومِ والفنونِ فى جنباتِ الإسكندريةِ بعدَ فترةٍ طويلةٍ من الاضمحلالِ والركودِ.

فقلتُ له: وما الذى حدث بعدَ ذلك؟

فقال: بعد هادريان تولَّى أنطونيبيوسُ حكمَ الإمبراطورية لثلاثة



كشك تراجان بجزيرة فيلة

وعشرين عامًا شاهدَتْ مصرُ خلالَها أحداثَ ثورةٍ عنيفةٍ في الإسكندريةِ، حيث ثار الإسكندريون في وجهِ الرومانِ وتمكَّنُوا من قتلِ الوالي قبل أن تتدخَّلَ الحاميةُ الرومانيةُ وتُوَاجِهَ الثائرين بكلِّ ما تمتلكُهُ من قوةٍ وما تتصفُ به من قسوةٍ، مما أدى إلى إلحاقِ أضرارٍ عظيمةٍ بأبنيةِ المدينةِ ومنشآتِهَا، وبعد أن هدأَتْ حدةُ الثورةِ قام أنطونيوبيوس بزيارةِ الإسكندريةِ وأشرف بنفسهِ على إعادةِ إعمارِهَا، كما شيَّدَ بعضَ منشآتِهَا الجديدةِ مثلَ ميدانِ السباقِ وبَابَي الشمسِ في الشرقِ والقمرِ في الغربِ، وفي عامِ ١٦١ وصل عرشُ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ إلى الإمبراطورِ الحالي مارك أوريليوس الذي تولَّى الحكمَ في وقتٍ تزايدَ فيه إحساسُ المصريين بمدى الظلمِ الواقعِ عليهم تحتَ الحكمِ الروماني وانتشرت خلالَه الإضطراباتُ

وعمَّت الفوضى بين ثمانية ملايين نسمة هى كلُّ سكان البلاد من مصريين وغير مصريين.

فقلتُ له: وهل يمثِّلُ غيرُ المصريين نسبةً كبيرةً من سكان بلادكم يانيل؟

فقال: لم يختلف التكوينُ السكانىُّ فى بلادنا تحتَ الحكم الرومانىِّ كثيراً عما كان فى عهد الأسرة البطلمية يا أبتى، فالمصريون هم الغالبيةُ العظمى تضافُ إلى أعدادِهِمْ أعدادٌ صغيرةٌ متفاوتةٌ من اليونانيين والآسياويين والليبيين وغيرهم، والتغييرُ المهمُّ الذى حدث فى الفترة الأخيرة هو ظهورُ الرومانيين كطبقة جديدة متميزة فى تكوين مصرَ السكانىِّ.

فقلتُ له: لقد نال الرومانيون عند استيلائِهِمْ على مصرَ تلك المكانةَ الاجتماعيةَ التى كان يتمتَّعُ بها اليونانيون من قبلِهِمْ، أليس كذلك؟

فقال: بلَى، فقد جاءت إلى بلاد الفراعنة مع الغزو الرومانى أعدادٌ وفيرةٌ من التجار ورجال الإدارة الرومانيين علاوةً على أفراد الحامية العسكرية الذين كوَّنُوا الجزءَ الأكبرَ من الجالية الرومانية فى مصرَ، ولأن جنودَ روما يقضون فى حياة الجندية ما يقربُ من خمسة وعشرين عاماً، لم يقتصرْ دورُهم فى بلادنا على أعمال العسكرية وحفظ الأمن ولم يُعْزَلُوا فى معسكراتِهِمْ بعيداً عن نبض الحياة اليومية، بل كثيراً ما التمسوا طرقَ الاندماج فى المجتمع المصرىِّ بالزواج وتكوين الأسَر وممارسة التجارة فى فترات الهدوء والاستقرار، وقد منحت روما مواطنيها فى بلادنا من الامتيازات ماجعلَ منهم طبقةً راقيةً تتمتَّعُ بالثراء والسلطان.

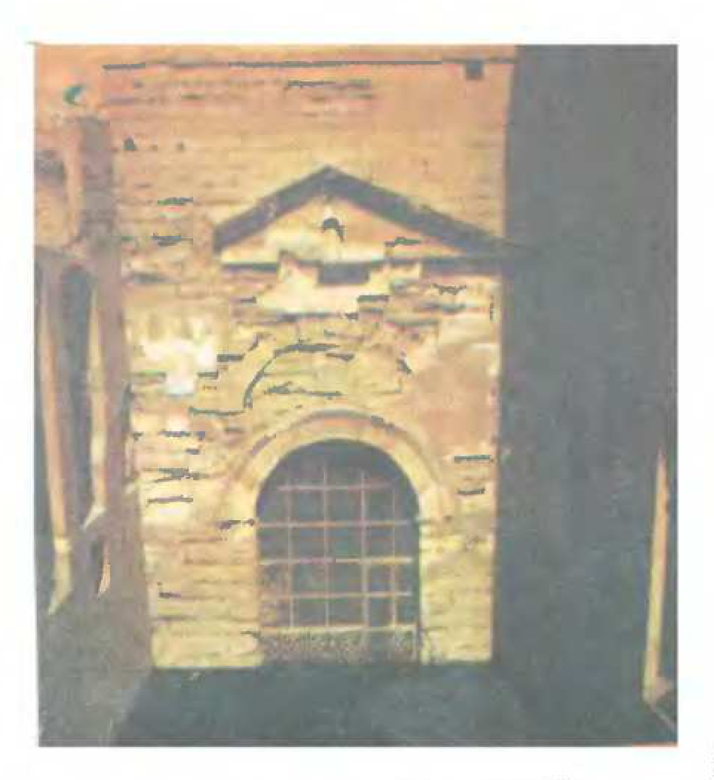
فقلتُ له: وماذا عن سكان الإسكندرية؟

فقال: اعتبرت روما سكانَ الإسكندرية من مصريين ويونانيين وغيرهم طبقةً اجتماعيةً تاليةً لطبقة الرومانيين، حتى صار لفظُ المصريين فى بلادنا يُطْلَقُ على جميع أبناء مصرَ عدَا سكان الإسكندرية الذين منحتهم الإدارةُ الرومانيةُ بعضَ الامتيازات

وعلى رأسها حقُّ الالتحاق بالجيشِ الرومانى، ومن ثَمَّ حَقُّ اكتسابِ المواطنةِ الرومانية، وبخلافِ الرومانيين والإسكندريين هناك ملايينُ المصريين من الصناعِ والتجارِ والزراعِ والكهنةِ يعيشون فى مدنِ المقاطعاتِ وقُرَاهَا على طولِ الوادى والدلتا وهمُ أكثرُ طبقاتِ السكانِ عدداً وأعظمُهُمْ معاناةً وفقراً، وخاصةً هؤلاء الزراعَ الذين أدَّى بهم تدهورُ شئونِ الزراعةِ مع تعدُّدِ ما يدفعونه إلى روما من ضرائبَ وتزايدُ ما يؤدونه لها من أعمالٍ إجباريةٍ إلى أن تركَ عددٌ كبيرٌ منهم أعمالَ الزراعةِ وفضَّلُوا الرحيلَ إلى مستنقعاتِ الدلتا ليحيَوْا بها حياةً بدائيةً خشنةً بعيداً عن سيطرةِ الإدارةِ الرومانيةِ وسطوَتِهَا.

فقلتُ له: وما سببُ كلِّ هذا التدهورِ فى شئونِ الزراعةِ بعدما كان من خططِ أكتافيوسَ وإصلاحاته؟

فقال: لقد كان تعدُّدُ الثوراتِ وتوالى الاضطراباتِ منذُ عهدِ الإمبراطورِ



الباب الرئيسى لحصن بابليون

تراجان سبباً أدى إلى إهمالِ تطهيرِ الترعِ والقنواتِ وترميمِ السدودِ والجسورِ، وشيئًا فشيئًا ساءت حالةُ الأراضى حتى صار ما تُخْرِجُهُ اليومَ من حاصلاتٍ لايكادُ يَفِى بتكاليفِ زراعتِهَا وما يُقَدَّرُ عليها من ضرائبَ.

فقلتُ له: إن ذلك التدهورَ إذن هو سببُ ثورتِكُمْ فى وجهِ مارك أريليوس وإدارَتِهِ فى مصرَ؟

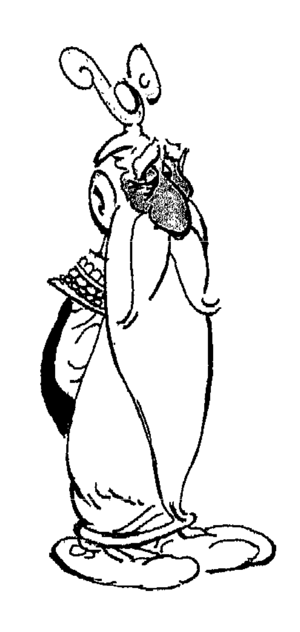
فقال: أجلْ يا أبتى، فمنذُ ثورتِنَا فى وَجْهِ جباةِ الضرائبِ فى عهدِ أكتافيوس لم يشتركِ المصريون خارجَ



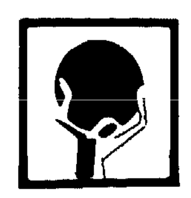
مقبرة أحد حكام واحة الداخلة فى العصر الرومانى

الإسكندرية اشتراكًا فعَّالاً فى مواجهةِ الاحتلالِ الرومانى، وظلَّتْ حركاتُ الرفضِ والمواجهةِ قاصرةً على الإسكندريين إلى أن دفعَ سوءُ الإدارةِ الرومانيةِ وتدهورُ صُوَرِ الحياةِ فى سائرِ ربوعِ الدلتا والوادى جميعَ المصريين إلى الالتفافِ حولَ الكاهنِ أزيدورَ فى محاولةٍ جادةٍ للتخلُّصِ من الحكمِ الرومانى، وإن كان القائدُ أفيديوس كاسيوس قد استطاع بدهائه وقوةِ جيوشه أن يُضْعِفَ من حِدَّةِ الثوارِ، فإنه لم يتمكنْ أبدًا من القضاءِ على روحِ الثورةِ فى صدورِ المصريين.

وطال بنا الحديثُ، حتى إذا ما فرغتُ تمامًا من الاستفسارِ عن كلِّ ما أريدُ معرفتَه، تركتُ نيلاً يعودُ إلى رِفَاقِهِ بينما تخيَّرْتُ أنا أحدَ الأكواخِ الصغيرةِ المنتشرةِ من حولى، وجلستُ بداخلِه مُخْرِجًا أوراقى وأقلامى لأسجِّلَ كلَّ ما تجمَّعَ لدىَّ من أخبارِ مصرَ الرومانيةِ، وما هى إلا بضعُ ساعاتٍ حتى امتلأَ المكانُ بالضجيجِ والجلبةِ، ولم أشعرْ إلا وقد ألقى الجندُ الرومانيون القبضَ علىَّ بعدما استطاع نيلٌ وكلُّ من كان معه الفرارَ من بين أيديهم.



أسمى «تاريخ»، وجدت منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض، معه عشت خطواته الأولى، وبين تجمعاته سعيت متنقلا من بلد إلى آخر، وطنى حيث يجد الإنسان فى العمل والإبتكار، لأراقب مسيرة أعماله، أحصى أخباره، وأدون إنجازاته يوما من بعد آخر وعاما تلو عام، تعددت زيارتى إلى كل أقطار العالم فكان لبلادكم نصيب وافر من هذه الزيارات، فيها شاهدت قيام أول حضارات الإنسان على أرضه، ولها سجلت الكثير من صفحات البطولات، وسجلات الإنجازات والرقى، واليوم وبعد كل هذه الأعوام الطوال أجلس بينكم لأحدثكم حديث مصر عبر الزمان نسترجع سويا أحداث رحلاتى إلى أرض النهر والأهرامات والحضارة.



للمكتب العربى المعارف

١٠ شارع الفريق محمد رشاد - خلف عمر أفندى

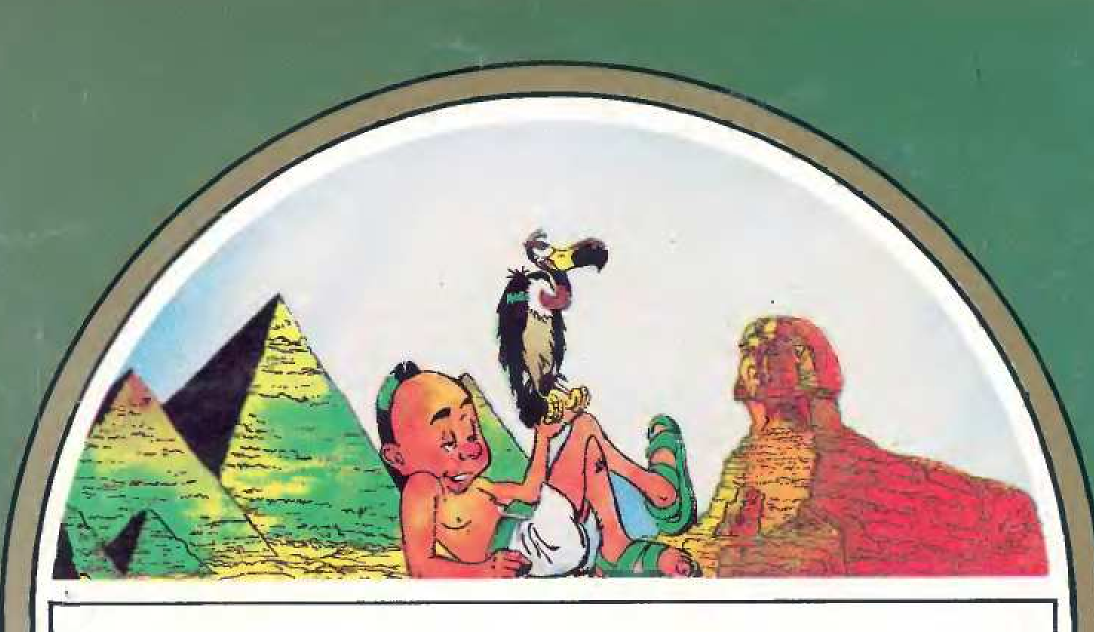
ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة

ت : ٢٤٢١٥٢٦



الناشر





فجر الحضارة

مصر الدولة

بناة الأهرامات

غروب شمس الأهرامات

العصر الذهبي

انتصارات طيبة

تأسيس الإمبراطورية

عصر التوحيد

الرعامسة

سقوط دولة الفراعنة

مصر وآشور

مصر وفارس

مصر البطلمية

ميلاد الإسكندرية

انهيار دولة البطالسة

بين روما والإسكندرية

مصر الرومانية

مصر القبطية

مصر البيزنطية

مصر الإسلامية



